الفصل السادس

لوي التوسير والقراءة الابستمولوجية للماركسية [1]

(1990 – 1918)

1 – حول حياة الفيلسوف:

ولد الفيلسوف الفرنسي ، لوي التوسير في الجزائر سنة 1918 حيث درس فيها مرحلته الابتدائية والاعدادية ، ثم انتقل بعدها الى مرسيليا في سنة 1937 حيث اسس فرع الشبيبة الطلابية المسيحية . وفي سنة 1939 التحق بالمدرسة العليا ، الا انه تم اعتقل ، من طرف الالمان، وذلك من سنة 1940 الى سنة 1945 .

وبعد خروجه من السجن سنة 1945 تابع من جديد دراسته بالمدرسة العليا للأساتذة ، حيث حضر رسالة حول : " تصور المحتوى في فلسفة هيغل " تحت اشراف " غاستون باشلار " ، تحصل بها على شهادة التبريز في الفلسفة .

في سنة 1948 عين استاذا بالمدرسة العليا ، وهي نفس السنة التي التحق فيها بالحزب الشيوعي الفرنسي . وفي سنة 1975 قدم مجموعة من الاعمال كاطروحة لنيل شهادة الدكتوراه من جامعة " بيكاردي " وهذه الاعمال هي : " مونتسكيو ، الفلسفة والتاريخ ." و " البيانات الفلسفية لفيورباخ" و" من اجل ماركس" و "قراءة رأس المال . "

ومنذ سنة 1965 عرفت اعماله انتشارا واسعا وخاصة بعد ان نشر كتابه " اجابة الى جون لويس" سنة 1973 حيث اصبح يتخذ مواقف سياسية علنية حول حياة الحزب الشيوعي ، سواء داخل الحزب مثل مداخلته حول : " الشيوعيون والمثقفون والثقافة " وهي مداخلة حول ضرورة تخلي الحزب الشيوعي على فكرة " دكتاتورية البروليتاريا " او خارج الحزب مثل كتابه: " ما لايمكن ان يستمر في الحزب الشيوعي " ، الا ان اعماله النظرية كذلك تعد في الحقيقة مداخلات سياسية ، مثل مقدمة كتابه " من اجل ماركس " او " لينين والفلسفة " وهي اعمال تتناول اوضاع الحركة الشيوعية بصفة عامة ، وتوفي في باريس سنة 1990.

---

[1] –النص مترجم بتصرف ، كتبه بيار ريمون في :.Dictionnaire des Philosophes , PUF, 1984، ' 1984 . ترجمة،د.الزواوي بغورة .

2 - حول القراءة الابستمولوجية :

انتج التوسير العديد من المفاهيم التي اصبحت موضوع تداول عام ، والتي تابعتها العديد من المناقشات . وان تحليلا لاهم المفاهيم ذات العلاقة ببداية العلم والممارسة النظرية والجدل المادي والعلم التاريخي والنظرية الايديولوجية والذات والفلسفة ، ليست هي المهمة الوحيدة التي يمكن انجازها لتقديم فلسفة التوسير .

وان مايميزه اكثر ، ليس مجموع ما انتجه وانما الطريقة التي انتج بها فلسفته.وما يميزه اكثر داخل الفلسفة الماركسية هو تفتحه الكبير على ما هو غير ماركسي ، وعلى صرامة البحث التي تناول بها اعمالا مثل اعمال " باشلار " و " كونغليم " و"فوكو" و"لكان " و "ماو " و " سبينوزا " وغيرهم ...

ان لصرامة العمل الذي قام به التوسير له قرابة كبيرة بعمل "هوسرل " في كتابه " الفلسفة كعلم صارم " ، ولعل هذا ما جعله يطرح احد اهم الصعوبات النظرية وهي : هل يمكن للماركسية ان تصبح علما ؟ وهل يمكن تمييزها عن باقي الايديولوجيات التي تحتكم لمعيار الحقيقة والخطأ ؟ ان هذه المشكلة قد طرحها منذ سنة 1964 في مجلة " النقد الجديد " وذلك تحت مقولة الدقة او الصوابية وهي المقولة التي خضعت فيما بعد للتعديل والمناقشة .

واذا كان كل افق نظري يجب ان يتحدد فان افق التوسير ينتمي الى الماركسية ولكن ليس فقط للماركسية واذا كان كل مشكل لايطرح بصورة مطلقة وانما في علاقة تركيبية مع مجموعة من المشاكل التركيبية فكذلك الحال بالنسبة لالتوسير الذي يرفض الوصف الظواهري للأشياء او تفسير التصورات او أي سؤال ماهوي او بحث في الجوهر او اهتمام بالذات .لماذا ؟ لأن الفلسفة في نظره تعاني من كونها تعتبر واسطة بين الالتزامات الايديولوجية والمسائل العلمية ، لذا فان مكانتها او منزلتها اوضعها هو الذي سيصبح المسألة المركزية في تفكيره .

ذلك ان التوسير كان يرى ان الماركسية في حالة أزمة ، لذا وجب اعادة قراءتها من جديد ، قراءة تشخيصية Symthmal ، تكشف عن البنية الدفينة في عمل ماركس .يقول : (لقد بدانا ندرك منذ عهد فرويد ، ماذا يعني الاستماع ، وبالتالي ماذا يعني الكلام ، فلم يعد خافيا علينا ان من سان دلالة الكلام والاستماع ان تكشف ـ فيما وراء المظهر الساذج او البريء للكلام والاستماع ـ عن وجود اعماق دفينة يمكن تحديد ابعادها الا وهي اعماق الخطاب الآخر الذي هو خطاب او حديث اللاشعور .)[2]

---

[2]- Louis Althusser : Position , ed , Sociales , 1976 , p, 26.

وبالاعتماد على هذه القراءة التي تميز بين الخطاب العلمي والخطاب الايديولوجي توصل الى ان المادية التاريخية ليست ' نوعا من النزعة النسبيةRelativisme الاجتماعية والتاريخية ، بل هي علم ' العلم الذي نتج او تشكل في التاريخ وعرف المفاهيم المؤقتة والنهائية ، مؤقتة لانها تبقى داخل التاريخ الذي يقوم بتصحيحها ، فالتاريخ هو سبب ظهور الحقيقة الدائمة وهذا يعود لكتابة واعادة كتابة المفاهيم التي يتم فيها وفي كل مرة الغاء الاصل L'origine والماضي Le Passé لانها تستهدف الحقيقة المطلقة وهذا على حساب التاريخ نفسه وبهذا المعنى ينفي التوسير النزعة التاريخية النظرية L'Historicisme Theorique التي تختزل علم التاريخ في نوع من المفهوم الظرفي للعالم ، وهنا فقط يكمن العمل النظري لالتوسير، أي هاجس المفهوم والتركيب النظري والتخطيط الطموح الذي لايخشى لا المفاهيم ولا حركية التغيرات ولا اعادة الانتاج الواسعة للنظريات ولا التصحيحات ولا الاستمراريات التي تتأسس بعد حدث ما .

لقد بين التوسير في دراسته "ماركس الشاب Le Jeune Marx " [3] التي نشرها في سنة 1961 اهمية "فيورباخ " في التطور النظري لماركس ' والعلاقة المعقدة التي تربطه بهيغل . فمن فيورباخ استعار ماركس مقولة الاغتراب Aliénation التي استعملها في تحليلاته الاقتصادية حيث الانسان الاجتماعي موضوع إفقار في المجتمع الرأسمالي ، يعني هذا ان النظرية تعتمد الاقتصادي في لغة فلسفية بعيدة عن إجراءات التجربة العلمية وسيتم القطع مع هذه النظرية بواسطة " اطروحات حول فيورباخ Thèse sur Feurbch" و " الأيديولوجية الألمانية L'Idéologie Allemande" حيث يقطع ماركس مع هذا التحليل ' ومنها تبدء المرحلة العلمية ' مرحلة علم التاريخ .

ان اثار هذه القطيعة Répture مازالت قائمة الى يومنا هذا ، وخاصة من خلال سؤالين : هل نجح ماركس في التخلي عن نظرية الفرد الشامل (كنوع او جنس) باعتبارها مركز التحليل العلمي دون التخلي في الوقت نفسه عن تميز بعض الشعارات الثورية وذلك في نوع من الامتثالية للتنبؤات العلمية ؟ وهل استطاع ان يوفق بين الاستعمال السجالي Polémique لمقولة الايديولوجية وتاكيده الواضح على استعمالها كمفهوم تاريخي؟[4]

---

[3] – انظر مجلة : **La Pensée** , N°56 .

[4] – انظر في هذا الشان مقدمة مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي .

من خلال هذا التحليل شرع التوسير في دراسة الرؤية النظرية لماركس الشاب La Vision Théorique ونقاطه الغامضة ومع القطيعة مع فيورباخ استنتج التوسير ما سماه بـ " اللانسانية النظرية Anti-Humanisme Théorique" أي رفض فكرة جوهر الأنسان المسؤول عن افقار الحياة الاجتماعية وهو ما تدل عليها التحليلات العلمية التي اجراها ماركس والتي لم يستعمل فيها مفهوم جوهر الانسان ، ولم يدخل أي شكل من اشكال الجوهر في السببية الاجتماعية .

ان هذه الاطروحة القائمة على تخلي ماركس عن فكرة الانسانية النظرية تترافق و :

1 – اطروحات ماركس حول وهم الايديولوجيا .

2 – ملاحظات سبينوزا حول الجهل بالسببية .

3 – ملاحظات لكان حول وظيفة المخيال المتنكر .

4 – ملاحظات فوكو حول نهاية الانسان .

وهكذا بالقطيعة مع فيورباخ نتج مفهوم جديد للجدلية هو المفهوم المادي الذي طبقه ماركس اكثر مما نظر له . وعليه يكون البحث اليوم مفتوح خاصة وان ماركس قد احتفظ بالكثير من خصائص الجدل الهيغلي ومنها :

1 – ليس هنالك سبب خارجي يتدخل في تتابع المراحل التاريخية ، بل يجب التفكير في هذا التتابع على اساس بنية العناصر .

2 – التناقضات هي المحرك للتعاقب والتتالي ، ولكن يجب ادراك ان لها مراحل مختلفة ، وانها ليست محركة في حالة التفكك .

3 – ان المهم في العملية الجدلية ، ليست سيرورة الشيء ، ولكن تكون الشيء في السيرورة .

ولقد عدل واضاف ماركس بعض الملامح الاساسية منها :

1 – لايجب ان نفهم حقيقة التناقضات بمعنى الترابط واللاترابط المنطقيين لان الروح ليس هو المعبر الشامل عن التناقضات الواقعية ولا هي المعبر عن وحدة سيرورتها.

2 – ان تجاوز التناقضات لايعود ابدا الى نوع من التوفيقية حتى وان كانت مثمرة .

3– الجدلية الاجتماعية هي نتاج تمفصل ولا تمفصل العديد من القطاعات الاجتماعية ، فهي اذن ليست نابعة من أي منطق كلي او روحي .

4 – وحدها تشابك المفاهيم غير المتساوية او غير المتكافئة للتناقضات والمقررة

للحتمية الاجتماعية هي التي تؤدي الى تكثيف للتناقضات والى نوع من التحديد التضافري Surdétermination للعناصر الاجتماعية حيث يكمن المقرر Décisif والمحدد Déterminant في نهاية المطاف.

وفي نظر التوسير انه مع القطيعة مع فيورباخ نتج علم جديد هو علم التاريخ او المادية التاريخية ، ومن المهم في نظره ان نبين جديد هذه القارة التي تشبه بعض القارات وتتميز عنها في نفس الوقت لانها قارة تتطلب فلسفة جديدة لم يتم صياغتها بعد .[5] وعلى هذا الاساس اعتبر التوسير ان ماركس افتتح قارة جديد هي قارة التاريخ ، واسس علما جديدا مشابها للعلوم الدقيقة هو علم التاريخ وفلسفة جديدة هي المادية الجدلية . وهكذا ادخل ا لتوسير الماركسية ضمن البحث الابستمولوجي مستفيدا بذلك من قراءته لباشلار وكويري وكونغليم ، وحاول ان يحدد كيف يمكن لعلم من العلوم ان ينبثق من التاريخ وكيف يتخلص من الذاتية ليؤسس الموضوعية .

والعلم عنده يعني كما حدده في كتابه "الفلسفة وفلسفة العلماء العفوية : (عملية بنائية يقوم بها العالم من خلال ممارسته العلمية . فالعلم اذن هو ليس عملية تجريد مباشر للواقع بل هو بناء واقع نظري هو اصح من الواقع المعاش .) [6]

ان علم التاريخ الذي اكتشفه ماركس ، علم مشابه للعلوم الاخرى من حيث القياس والتعبير الصارم او اللغة الدقيقة وخاضع للتجربة ، الا انه في الوقت ذاته علم مغاير ومخالف لجميع العلوم من حيث كونه يسمح بالالتزام والممارسة الثورية.

يعني هذا ان التوسير كان يتجه بعمله هذا نحو اسئلة جديدة وصعبة ، فماركس بالنسبة له لم يترك نظرية حول مكانة او منزلة الفلسفة ولا حول الايديولوجيا ولا حول الذات ،لذا حاول ان يعوض هذا النقص بتقديم الفلسفة على انها متميزة عن الايديولوجية من حيث ان ليس لها موضوعات محددة اوحقائق معينة ،وانها تمثل الصراع الطبقي في النظرية .

لقد ميز التوسير الفلسفة بوصفها الصراع الطبقي في النظرية وجعل من الايديولوجيات موضوعا لتحليلات المؤرخ والفيلسوف المادي ، بحيث ان الصراع الطبقي كمحرك للتاريخ قد وضع في "البيان الشيوعي " في الدرجة الاول ولكن ذلك كان على المستوى الفلسفي فقط لا نه على المستوى السياسي لايمكن اختزاله لا الى

---

[5] – يرى التوسير ان اليونان اكتشفوا قارة الرياضيات ، وان نيوتن اكتشف قارة الفيزياء وان ماركس اكتشف قارة التاريخ . (م)

[6]- Louis Althusser : Philosophie et Philosophie spontanée des savants , ed , Maspéro , 1973 , p .17.

البنية التحتية أي علاقات الانتاج وقوى الانتاج ولا الى البناء الفوقي بالرغم من ان حالة الثالث المرفوع مرفوضة ، لان الايديولوجيات هي من دون شك تابعة للبناء الفوقي وان كانت لاتقل مادية لكونها مرتبطة بالبناء التحتي كشرط لاعادة انتاجها .

لم يقدم التوسير هذه الافكار دون صعوبات نظرية ، فكتابه " عناصر من اجل النقد الذاتي " يبين انه من غير الممكن الحديث بشكل مجرد عن صحة ايديولوجيا ثورية ، ولا تقديم الفلسفة كصراع طبقي في النظرية دون تطبيقها ولا المساهمة في نظرية الايديولوجيا دون الكشف عن مؤسساتها كالدولة والعائلة والمدرسة وغيرها من المؤسسات الاجتماعية .

لقد ترك التوسير مجموعة من الابحاث الفلسفية الهامة منها : " مونتيكسيو ، السياسة والتاريخ 1959 " و " من اجل ماركس 1965 " و " قراءة راس المال 1969 " و " لينين والفلسفة 1972 " و " جواب الى جون لويس 1973 " و " عناصر للنقد الذاتي 1974 " و " الفلسفة وفلسفة العلماء العفوية 1976 " و " مواقف 1977 " بالاضافة الى العديد من المقالات والحوارات والمداخلات التي تشكل بحق مساهمته الكبرى ، في التجديد الابستمولوجي للماركسية ، و المتمحورة حول كيفية قراءة ماركس والتمييز بين الخطاب العلمي والخطاب الايديولوجي .